مُلاحظات منهجيّة حول الدراسات الإجتماعيّة في الوطن العربي

الدكتور محمد عبد المولى (تونس)

ان مجتمعاتنا العربية الاسلامية ، والمجتمع المغربي جزء منها ، في اشد الحاجة الى دراسات اجتماعية لجميع مشاكلها ومؤسساتها ونظمها وقطاعات حياتها الاقتصادية والسياسية والثقافية ...

فالبحث العلمي الاجتماعي يعد في الواقع تقليدا جديدا في مجتمعنا ، وليس للعرب فيه اسهام حديث يستحق الذكر . هذا اذا استثنينا العلامة العربي عبد الرحمان بن خلدون (1332 — 1406) الذي كرسنا له ، خارج هذا العرض بحثا خاصا .

فلم يصل ، الى علمنا ، أن احد الباحثين العرب تمكن من ربط تراثنا العلمي العربي في حقل الدراسات الاجتماعية والسياسية بالحركات الفكرية والعلمية في العالم ، وخاصة ربط هذا التراث بحقول علم الاجتماع، وعلم النفس الاجتماعي ، والانثروبولوجية الاجتماعية..

ان محاولات اجراء البحوث الميدانية والعلمية في حقول علم الاجتماع (سوسيولوجيا) وعلم النفس الاجتماعي ، في المجتمع العربي ، ما تزال في بدايتها ..

— فالبنسبة لجمهورية مصر العربية ، فان البحث الاجتماعي ما زال في بداية المحاولة وليس له جذور راسخة ... ويعتبر انشاء المعهد القومي للبحوث الجنائية عام 1956 نقطة الانطلاق في هذا المجال :

اقتصر هذا المعهد في البداية على البحث في العلوم الجنائية كعلم الجريمة وعلم كشف الجريمة ، وعلم العقاب ليصبح بعد ذلك سنة 1960 « المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية » . وانطلاقا من هذا التاريخ اصبح المعهد يعنى بالعلوم الاجتماعية بمعناها المعروف ، ونعني بذلك علم الاجتماع ، وعلم النفس ، وعلم الأنتروبولوجيا الاجتماعية (1) .

— وتأسست ، حوالي سنة 1962 ، دائرة لعلم الاجتماع في كلية الآداب والعلوم الانسانية بالجامعة اللبنانية ويمكن للطالب أن يتخرج منها بالاجازة في علم الاجتماع .

— وفي تونس تأسس فرع خاص بالعلوم الاجتماعية سنة 1964 ... كما تأسس مركز للبحوث الاجتماعية الى جانب مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية (C.E.R.E.S.) ومن المعلوم أن هذا المركز يضم الى جانب البحوث الاجتماعية شعبا عديدة مثل شعبة الألسنية والحقوق والاقتصاد والديمغرافيا . ومن ميزة هذا المركز — الذي كان يتلقى اعانة مالية من مؤسسة فورد الأميركية حتى سنة 1971 —) انه يهتم بالبحوث الميدانية وخاصة في الحقول الاجتماعية والديمغرافية (2) .

---

1) انظر : الدراسات الاجتماعية . وتطوير المجتمع للسيد ياسين . (الطليعة — العدد العاشر — اكتوبر 1971 — ص 95 — 100) ص 95 و 96 .

2) انظر مشاريع البحث العلمي في نشرتين خاصتين : (1969 و 1970) .
1) Programme des Travaux de Recherche - (I.P.S.E.J.E.S.), 23, rue d'Espagne.
2) Programme des Travaux de Recherche - 1970 (C.E.R.E.S.), 23, rue d'Espagne.

— ومنذ سنوات قليلة تأسست جمعية جزائرية للدراسات الديمغرافية والاقتصادية والاجتماعية Aardes ، وهي تقوم بتنفيذ طلبات وزارة التخطيط والاقتصاد الوطني . كما اكد لي ذلك مديرها — واعمال هذه الجمعية لا تعدو ان تكون جمع المعلومات الحيوية واحصاءها وفرزها .. حول ناحية معينة او موضوع معين كالملكية الخاصة ، او الاستهلاك العائلي ، او احصاءات تتعلق بالسكان ..الخ بحيث ليس هنا بحوث اجتماعية بالمعنى العلمي للكلمة.

— وفى المغرب الاقصى انشىء معهد العلوم الاجتماعية ثم الحق بكلية الآداب .

اما دائرة العلوم الاجتماعية فى جامعة الجزائر، فبحكم حداثة سنها لا اشعاع علمي لها .. ربما ذلك راجع الى قلة الباحثين والأساتذة الاكفاء .. وفى سنة 1967 تأسس قسم خاص بعلم الاجتماع فى جامعة بغداد .

هذه هي ، باختصار محاولات الاعتناء بالبحوث الاجتماعية ، وهي تجربة لا تزال تلتمس طريقها الى النمو والأصالة والابداع .

ولا يسعنا امامها الا أن نبدي الملاحظات المنهجية التالية :

1 — ان اللغة الاساسية لتدريس العلوم الاجتماعية والبحث العلمي الاجتماعي ، فى كليات ومعاهد الشرق العربي هي اللغة العربية .. الى جانب لغات اجنبية مساعدة .

اما اقطار المغرب العربي ، فان الفرنسية هي المعتمدة كأساس للتدريس والبحث فى حقول الدراسات الاجتماعية ، نستثني من ذلك دائرة العلوم الاجتماعية بجامعة الجزائر التي قطعت خطوات موفقة فى تعريب العلوم الاجتماعية . ومن المألوف أن نلاحظ ان جل الباحثين فى علم السوسيولوجيا بتونس والمغرب الاقصى ، عندهم جهل يكاد يكون تاما باللغة الوطنية والتراث الشعبي ، وبالتالي بلغة المجتمع ورموزه وتاريخه ...

2 — اقتصر الجيل الأول من الباحثين واساتذة علم الاجتماع — وكان تكوينهم فى الغالب فلسفيا — على تدريس علم الاجتماع (سوسيولوجيا) ، على غرار التقاليد الفرنسية التي تهتم شديد الاهتمام بالمقارنة بين الأفكار والمدارس السوسيولوجية ، مقارنة تفتقر الى الدراسات الميدانية والواقعية ... (وانصب جزء كبير من اهتمامهم على شرح اعمال المدرسة الدوركايمية (1) ابتداء من مؤسسها اميل دوركيم ومرورا بأعمال فوكوني (2) عن المسؤولية وسلاستين بوتلي (3) فى كتاباته عن المساواة : والديمقراطية امام العلم ورينى هيبر (Hubert) (1885 — 1954) فى قواعد السلطة فى الديمقراطية.. ودراسات ليفي بريل الانثروبولوجية ... الخ .

وقد اقتصر هؤلاء الأساتذة والباحثون الرواد : كما فعل زملاؤهم فى أمريكا اللاتينية على النقل دون الفحص والتفسير والتأصيل . وهذا يعني أن هؤلاء جميعا لم يهتموا بربط النظريات الاجتماعية بالظروف الاقتصادية والسياسية التي نشأت وترعرعت فى ظلها، فلا يمكن بأية حال من الأحوال أن نفهم مدرسة اميل دود كيم الا فى ضوء أوغست كونت (4) الذي هو الآخر لن يفهم فى معزل عن ظروف العصر الذي عاشه : مثلا الصراع بين البورجوازية والطبقات الكادحة على مستوى حركة المجتمع ، وبين الايجابية الوضعية (Positivisme) والاشتراكية على مستوى الصراع الايديولوجي .

ان الدراسات داخل هذا الاطار تساعدنا كثيرا على فهم أوغست كونت وبالتالي اميل دوركيم .

ويقول كاتب معاصر فى هذا الصدد : « عجز هذا الجيل عن تقديم منظور سوسيولوجي للمعرفة يربط بين الفكر وبين البناء الاجتماعي برباط وثيق ، وبالتالي قدم الفكر السوسيكولوجي الفرنسي معزولا عن جذوره ، وبكل ما يتضمنه من تحيزات ايديولوجية صارخة ، لم يكن الغرض منها سوى الحفاظ على مصالح الطبقة البورجوازية الأروبية ، .واهم هذه التحيزات ضرورة الفصل بين القيم والواقع ، ومنع

(1 Emile Durkheim (1858-1917)
(2 Paul Fauconnet (1874-1938)
(3 Célestin Bouglé
(4 Auguste Comte (1793-1857)

الباحث الاجتماعي من تقييم الظواهر الاجتماعية أو الحكم عليها نزولا عن رغبة « موضوعية » العلم و « حياده » .

3 — وبعد سنوات جاء جيل من الأساتذة والباحثين العرب فأدخلوا ، لأول مرة ، في البيئة العلمية العربية مناهج وطرائق البحث الاجتماعية الميداني ، وشرعوا في تطبيقها على نطاق محدود جدا لا يتعدى الدراسات والبحوث ، للحصول على درجة الدكتوراه أو في صورة اعداد بحوث جزئية لدراسة موضوعات خاصة .

ومن الملاحظ ، في هذه المرحلة بالذات ، تأثر الباحثين والاساتذة العرب ، أو جلهم على الأقل ، بالمناهج الغربية وبأدوات البحث المستعملة في الغرب الرأسمالي وكان من الصعب أن تتوفر الفطنة النظرية لدى الباحث الاجتماعي العربي حتى يكشف عن الجذور الايديولوجية التي يزخر بها علم الاجتماع .

ولم يكن من الهين ، في هذه المرحلة الانتقالية على الباحثين العرب هضم ما درسوه في الشرق أو في الغرب ، والاستقلال بوضع طرائق علمية وعلم اجتماع عربي — اسلامي له أساليبه وطرائقه لدراسة واقع المجتمعات العربية — الاسلامية ، ببنياتها وطبقاتها الاجتماعية ومشاكلها ومؤسساتها ، وفي تحليل هذا الواقع بما احتوى عليه من قيم غنية خالدة ، الى جانب ما تضمنه من فوضى وتناقض ، صنعت بعضها ، عصور الانحطاط والظلام ، وصنع بعضها الآخر التخلف الفكري والمادي طوال الاحتلال الاستعماري في العصر الحديث .

4 — ان استعمار المناهج المستوردة في دراسة المجتمعات العربية الاسلامية : دون نظر الى طبيعتها الخاصة وظروفها وتطورها التاريخي والسياسي والاقتصادي ، ورموزها وحركيتها ، هو خطأ منهجي في منتهى الخطورة . انه مصدر سوء التفاهم والخلط الذي كثيرا ما يحدث في استعمال المناهج العلمية في غير ما وضعت له . واذ عمد الباحثون الأجانب ، الى دراسة المجتمعات العربية الاسلامية ، رغم جهلهم الظاهر بطبيعتها ورموزها ولغتها ، وحركيتها وتفكيرها الديني ، — استعملوا طرائق منهجية قد تكون صالحة لدراسة مجتمعاتهم ، والتطور التاريخي والاجتماعي والفكري لها — فاذا ما تهافت الباحثون العرب وخاصة في المغرب العربي — الا من رحم ربك — على هذه الدراسات التي وضعها الأجانب عن المجتمع العربي وتاريخه، فانهم يفقدون بذلك موضوعية بحثهم ويرتكبون بذلك ، خطأ منهجيا ، خطير العواقب (1) .

لابد اذن ، والحالة هذه ، من اعادة النظر في دراسات الأوروبيين والأجانب من مستشرقين ومن دار في فلكهم من اساتذة ودكاترة ، ان عدم ثقتنا بأنفسنا وتخلفنا العلمي والتكنولوجي ، والاقتصادي قد حبب الينا كل ما هو أجنبي « الى حد أن هناك جماعات تعتقد ، كما اكد علال الفاسي ، ان الخير كل الخير هو في تقليد أوروبا الغربية ، وأمريكا السكسونية ، وروسيا السلافية ، والمانيا الجرمانية » .

5 — ان التقاليد الفرنسية في علم الاجتماع ، جعلت جل الدراسات الاجتماعية مبنية على مبدأ الحياد وتعلة الموضوعية ، وهذا الموقف لا يمكن أن يفسر الا بتطور المجتمع الأوروبي نفسه . ذلك أن المجتمعات الأوروبية — والمجتمع الفرنسي جزء منها ، — قد تأثرت بمؤثرات وحفت بها ملابسات ، ما عاشتها مجتمعات العالم الثالث ، والمجتمعات العربية الاسلامية خاصة : مرت هذه المجتمعات (الغربية الرأسمالية) بعصور الاقطاع والجهل والظلام ، الى عصور الثورات التي عصفت وما تزال : فمن ثورة فكرية في القرن السابع عشر ، الى ثورة سياسية في القرن الثامن عشر ، الى ثورة اقتصادية في القرن التاسع عشر الى ثورة اجتماعية في بداية القرن العشرين .... كل هذه الثورات بمذاهبها المختلفة وملابساتها الخاصة جعلت للمجتمع الأوروبي تركيبات وأنظمة خاصة بها ، وبالتالي تفكيرا اجتماعيا وسوسيولوجيا خاصا . ولا يتسع المجال هنا لعرض تطور الفكر الاجتماعي في أوروبا (2) : بل نشير فقط الى أن علم الاجتماع قد ولد بصفة رسمية في أوروبا في القرن التاسع عشر ، (وفي الوطن العربي في القرن الرابع عشر على يد العلامة

---

1) انظر بحثنا عن التحليل العلمي الشامل ... اللسان العربي — المجلد السابع الجزء الاول — يناير 1970 الرباط . ص . 342 — 349 .

2) انظر كتابا مبسطا لبوطول وهو معرب :

Bouthoul, **Histoire de la Sociologie,** Que sais-je ? - PUF, Paris.

عبد الرحمان ابن خلدون) ، لكن لابد من الرجوع الى القرن السادس عشر لنعرف « أن ازمة المؤسسات السياسية والدينية والتربوية قد ادت الى خلق علم اجتماعي لم ينضج بعد ، ولكنه كان نقديا على اية حال ، للنظام السائد والافكار التي تؤيده . مثلا : قام رابلي ، قبل الثورة الفرنسية (1789) بنقد اجتماعي كما قام منتاني (Montaigne) بتحليل عملية جعل الثقافة والعلم والتربية ، لائكية ، يعني ان التربية، بعد أن كانت جهازا تابعا للكنيسة ، تصبح شيئا فشيئا جهازا تابعا للدولة . وقد قال ما معناه : « أن العلاقة بين الكنيسة والدولة او العلاقات بين الكنائس وجميع اشكال الدولة فى أروبا ، وعلاقات الكنائس بالمدارس والمؤسسات ، وكذلك علاقة العائلة بالكنيسة ... يجب أن تنقلب راسا على عقب وذلك حسب عملية انتقال لها جميع خصائص الزلازل الأرضية (أو السماوية ؟) . ان هذا التحليل والموقف الانفجاري لا يعدو أن يكون ، فى ذلك الوقت ، محاولات انتقادية اشبه ما تكون بالأدب الساخر . نظرا لفقدان الكشوف الميدانية والاحصاءات .. (1)

6 — ومن المألوف ، فى تاريخ الفكر الاجتماعي الحديث أن علم السوسيولوجيا قد ولد فى نفس الوقت الذي اخترع له أوغست كونت (1798 — 1857) هذا الاسم(Sociologie)فى اغلب الأحيان ينسى ان هذه التسمية قد وضعت كرد مضاد لمؤسس آخر وهو كاتلي (Quetelet) عندما كان أوغست كونت سكرتيرا خاصا لهنري سان سيمون (H. de St Simon) (1760 — 1825) الذي استوحى « فكرة علم الانسان » من كتاب دائرة المعارف ، ولا شك ، أن لهم اهمية فائقة فى عصر سان سيمون : كانوا أول من عمل على جمع العلوم فى مؤلف واحد ، بعد ما اكدوا وحدة المعارف الاجتماعية ، ثم توصلواالي وجوب فصل النظرية عن الواقع ، وهذا الفصل أصبح ، فيما بعد ، أساس علم الاجتماع الفرنسي . لقد وصلت مقومات فكرة علم الانسان هذه الى سان سيمون ، عبر الفلاسفة المثاليين والأطباء . واحد هؤلاء الأطباء هو الدكتور بيردان (Dr Burdin) الذي أوحى الى سان سيمون بأن يلقب علم الاجتماع بعلم ايجابي — وضعي ، وكأنه علم الحياة العضوية (Physiologie) أما أوغست كونت ، فابتدا اول الأمر بتسمية علم الطبيعة الاجتماعي كما فعل سان سيمون قبله ، والقصد من هذه التسمية ، هو المناداة بقيام علم جديد يكون على غرار علم الموجودات الطبيعية (Sciences naturelles)غايته دراسة الأحداث الاجتماع ويتجانس مع بقية اقسام الطبيعة . وفى سنة 1835 تمكن الفلكي البلجيكي كاتلي من نشر تأليف عنوانه : « الانسان وتطور ملكاته » أو فى سبيل فيزياء اجتماعية ، ثم اعاد نشره سنة 1860 تحت عنوان « فيزياء اجتماعية » (2) (Physique sociaie) كانت منهجية كاتلي فى كتابه الآنف الذكر تعتمد على معطيات مختلفة ديمغرافية واحصائية فى دراسة الجريمة مثلا . وقد اتضح له من خلال البحث والملاحظة أن القوانين التي تظهر فى المجتمع ، تخضع لنفس النظام الذي تخضع له القوانين فى الطبيعة . وقد توصل عبد الرحمان ابن خلدون ، قبل كاتلي بقرون ، الى نفس الملاحظة ، اذ قال : « فشأن المجتمع فى ذلك (النواميس والعلل) شأن عالم الطبيعة وناموس العلة واحدتيهما (3) .

أما أوغست كونت فكان ينتهج طرائق مغايرة ، وهي أن هناك انقطاعا بين علوم الطبيعة والعلوم الاجتماعية ، فبالاضافة الى كراهيته الشديدة للاحصاءات وحساب الاحتمالات ، رفض أن يسمي هذا العلم العلم الجديد بالفيزياء الاجتماعية واختار له اخيرا اسما آخر هو علم الاجتماع (سوسيولوجيا) ، وذلك لاسباب شخصية بينها فى كتابه : « دروس فى الفلسفة الايجابية » (4) .

---

1) انظر كتاب :
Clefs pour la Sociologie, Seghers, Paris 1971 (par Georger Lapassade et René Lourau), p. 25

2) Sur l'homme et le développement de ses facultés, ou essai de physique sociale.

3) انظر : المقدمة (فى النصوص الفلسفية الميسرة) لكمال اليازجي . ص : 408

4) الجزء الرابع ، الدرس 47 . ص : 252